# مجنون سلطانة *

محمود شقير**

## ١

يواصل خليل السكاكيني في هذا الجزء من اليوميات، سرد تفاصيل حياته وتسجيلها كل يوم تقريباً، مضيفاً إلى الذاكرة الفلسطينية غنىً جديداً بما يرفدها به من تفاصيل حية عن وجود بشري حي، في مدينة كانت تتقدم على درب الحداثة في زمن ملتبس.

وقد استأثر موت زوجته سلطانة بأكبر حيز من هذا الجزء، حيث بدا واضحاً فيه: التشاؤم والتذمر من الحياة، واستمرار التفجع على الزوجة وذرف الدموع على قبرها الذي داوم على زيارته كل يوم، بما يؤكد وقوعه في حالة مرضية يدلل عليها الهجس الدائم بالموت والهوس بقبر الزوجة، رغم أنه بعد مضي زمن ليسٍ بالقليل، خفف من زياراته اليومية للقبر، واكتفى بزيارتين في الأسبوع بسبب طقس الشتاء، ونزولاً عند إلحاح أخته ميليا التي كانت تذهب معه في العادة إلى المقبرة.

وتتواصل اليوميات، شأنها في ذلك شأن ما سبقها من يوميات درج الكاتب على تدوينها منذ سنوات، بأسلوب السرد البسيط المباشر، وبلغة عربية فصيحة متحررة من الزخارف اللفظية، قريبة في الوقت نفسه من نبض الحياة اليومية، ما أكسبها حيوية ووضوحاً وتناغماً مع الموضوعات التي تعبر عنها. بالطبع، ثمة في ثنايا هذا السرد البسيط المباشر، جهد الكاتب الذي يحرص على أن يكون نصه جميلاً، باللجوء إلى مجموعة من الوسائط الأسلوبية التي سنأتي على ذكرها في ما بعد.

## ٢

ولعل ما يلفت الانتباه في هذا الجزء من اليوميات، مقدار الحب الذي يكنه خليل السكاكيني لزوجته، التي كانت بالنسبة له «ملء القدس وملء فلسطين». فهو يسبغ عليها أكمل الصفات، يصف جمالها فإذا هو أبهى جمال، ولا يكتفي بوجهة نظره هو وحده في ذلك، بل إنه يستشهد بآراء أصدقاء له ومعارف يشيدون بجمال سلطانة بعد مقابلتهم لها أو تعرفهم إليها. ويستشهد كذلك بآراء أطباء وممرضات حول هذا الجمال أثناء إقامتها في المستشفى، لمعالجة مرضها الذي طال واستطال حتى أودى بها، فماتت وهي في أوج الحياة.

وهو يتحدث عن عقلها فيصفه «بأنه عقل صحيح لا يقبل السخافات والخرافات». وعن أخلاقها فيصفها بالرفعة والوفاء، وعن تفانيها في خدمة الضيوف وحدبها عليهم وعلى أفراد أسرتها. ويجري مقارنة بينها وبين نساء كثيرات يراهن هنا وهناك، فيخرج من المقارنة بنتيجة واحدة: وهي أن سيدته سلطانة هي أجمل النساء، ولا تضاهيها في الجمال أية امرأة على وجه الدنيا، فحق له

* مقدمة الكتاب السادس من يوميات خليل السكاكيني، صدر عن مؤسسة الدراسات المقدسة. ٢٠٠٧.

** كاتب فلسطيني مقيم في القدس.

بذلك أن يتعلق بها كل هذا التعلق، وأن يمحضها كل هذا الحب الذي لا يضاهيه سوى حب قيس لمحبوبته ليلى، وحب جميل بن معمر لبثينة، وكذلك حب الشاعر الفرنسي لويس أراغون لزوجته إلزا، حيث سبب موتها له خللاً نفسياً لازمه حتى نهاية حياته، وكان قد كتب فيها عدداً من الدواوين الشعرية منها: «عيون إلزا» و «مجنون إلزا».

وحينما تقع سلطانة فريسة المرض، يصاب خليل السكاكيني بالقلق والخوف على محبوبته، ويعكف على قراءة كتب الطب، لعله يتوصل إلى معلومات تفيده في جداله مع الأطباء الذين يشرفون على حالة سلطانة، وتسعفه في إنقاذها من خطر الموت. كان خليل السكاكيني يمعن في محاججة الأطباء محاولاً ما أمكن استبعاد فرضية أنها مصابة بالسرطان، شاعراً بالأمل كلما اتفق معه أحد الأطباء في ما يذهب إليه، وكان لا يعرف هدوء البال حينما يؤكد له أطباء آخرون أنها مصابة بالسرطان، وأن مصيرها المحتوم بات أقرب مما يتصور.

تموت سلطانة، ويحدث ما يشبه الانقلاب المدمر في حياة خليل السكاكيني. كان قد بنى بيتاً جديداً في حي القطمون بالقدس، لكي يمضي فيه أجمل الأوقات مع سيدته سلطانة ومع ابنه سري وابنتيه دمية وهالة. غير أن موت الزوجة يحيل المستقبل المرتقب إلى كوابيس، ولا تعود الحياة تحمل أية بهجة للزوج الأرمل الذي بقي محافظاً على عهده لزوجته، فلم يتزوج غيرها من النساء حتى مات. بل إنه كان يجد استمراره في الحياة بعد موتها نوعاً من عدم الوفاء لها، ويتمنى دوماً لو أنه مات قبلها، أما وقد ماتت قبله، فإنه بات ينتظر اللحظة التي يأخذه الموت إليها، ليكون معها وتحت قدميها كما كتب في يومياته غير مرة.

يسيطر الحزن والتفجع على أغلب صفحات هذا الجزء من اليوميات، ولا يخف التفجع إلا في آخر مائة صفحة تقريباً، حيث يكون قد مر عامان أو أكثر قليلاً على وفاة سلطانة. لا يعترف خليل السكاكيني بأن الحزن الذي يسببه الموت يبدأ كبيراً ثم يأخذ في التضاؤل حتى يتلاشى، فهو يعتبر أن حزنه على سلطانة لا يمكن له أن يتلاشى. وكان يؤكد على ذلك بذرف الدموع حزناً عليها، مع أن زمناً غير قصير مرّ على موتها. ورغم ذلك، فإن منطق الزمن وواقع الحال كانا يأخذانه إلى حالة من التخفف النسبي من الحزن والألم.

غير أن المسألة لم تكن منحصرة في الحزن ومن ثم في النسيان، فقد تغلغل موت الزوجة الحبيبة في نفس زوجها وفي عقله ومشاعره، وانعكس على شكل تأملات في الموت والحياة، وفي الحب والوفاء، وفي الغاية من الوجود. وامتد ليأخذ شكل النقمة في بعض الأحيان على السماء وعلى اجتياحها المفاجئ لسعادة توقعها الرجل ثم لم تكتمل.

## ٣

هذا الجزء من اليوميات المغلف بهاجس الموت، الممتلئ بالأحزان، لا يكتفي بمجرد التفجع على الزوجة وإعلان الحزن عليها، الذي يعيد إلى الأذهان، أحزان الرومانسيين المنفلتة من كل عقال. ذلك أن اليوميات تواصل تمددها في كل اتجاه، مفصحة عن زخم الحياة اليومية التي كان يحياها خليل السكاكيني، ومعبرة في الوقت نفسه عن ثقافته الواسعة وعن التنوع الكثيف في مطالعاته ومعارفه، وعن النزعة العقلانية التنويرية التي وسمت نشاطه الفكري وسلوكه العملي، وانعكست في آرائه حول المدرسة وأساليب التدريس، وفي تطبيقه الفعلي لهذه الآراء.

يقول: «لم أزل منذ أنشأنا مدرسة النهضة أحاول جهدي أن يكون التعليم فيها صحيحاً، وأن تبنى التربية فيها على تكبير نفوس الطلاب لا تصغيرها، على إطلاق الحرية لا تقييدها..»، ويضيف إلى ذلك في موقع آخر، مؤكداً على رسالته التربوية: «نحاول (...) أن نوسع العقول لا أن نحشوها بعلوم الأولين والآخرين، وبكلمة أن نخلق نوعاً جديداً من البشر..»، وكذلك في موقفه المتقدم من بعض الظواهر الدينية والاجتماعية والفكرية، ومن بعض أحداث زمنه، وعلى الأخص من حكم الانتداب البريطاني على فلسطين ومن الغزوة الصهيونية لبلاده، ومن الحرب العالمية الثانية، ومن الحكومات، دون أن يعني ذلك أن الرجل كان منسجماً حتى النهاية في مواقفه وقناعاته.

## ٤

لم يكن خليل السكاكيني من نمط المفكرين الذين يختارون العزلة عن الناس، لتوفير الوقت اللازم للبحث وللدراسة والكتابة. في الحقيقة، كان الرجل دائم التذمر في يومياته من ضيق الوقت ومن كثرة الزوار، الذين ما إن يبدأ قراءة كتاب أو تدوين فكرة، حتى يطرقوا باب بيته ــ رغم بعد البيت عن مركز المدينة، فكيف لو كان قريباً!ــ فيصرفوه عن القراءة والكتابة لكي يتفرغ لهم. وحينما كان يزوره أصدقاؤه من الكتاب والأدباء والمفكرين، فقد كان يغتنم الفرصة لكي يقرأ لهم مقاطع من يومياته، أو صفحات من مادة فكرية أو تربوية يعكف على كتابتها، لكي يذيع رأيه بينهم، ولكي يستفيد من ملاحظاتهم على ما سمعوه.

كان خليل السكاكيني يمارس حياة يومية منفتحة على علاقات اجتماعية واسعة، مع أشخاص مقربين وغير مقربين، ومع عائلات مقدسية وغير مقدسية تربطها به علاقة القرابة أو النسب، أو الزمالة والصداقة. وفي بعض الأحيان يزوره أشخاص عاديون طلباً لمعونة أو مساعدة. وكان السهر الليلي سمة بارزة في حياة الأسرة، حيث تنشط سلطانة في خدمة ضيوفها بكل أريحية وتقدم لهم أشهى طعام، وحيث يعزف سري بعض المقطوعات الموسيقية لمشاهير الموسيقيين، وحيث لا يندر أن يرقص أهل البيت وضيوفهم، خصوصاً في المناسبات الاجتماعية والأعياد، وفي هذا كله تعبير عن الانفتاح والحراك الاجتماعي الذي كانت تعيشه النخبة المثقفة في القدس أوائل الأربعينيات من القرن الماضي، وعن ميلها إلى التعاطي مع الثقافة والآداب والفنون.

وكان خليل السكاكيني محباً للناس ميالاً لمساعدتهم وللتخفيف من معاناتهم. مع ذلك، كان بينه وبين نفسه يتذمر من سلوكيات الناس ومن أنانيتهم وسوء أخلاقهم، وكان يرى نفسه مغترباً عن مجتمعه ويرى أنه جدير بالعيش في بلاد أخرى، ويبدو أن ذلك نابع من عدم رضاه عن مجتمعه الذي ما زال بوجه الإجمال مجتمعاً تقليدياً، لا يستوعب على النحو المطلوب الأفكار الحديثة التي يؤمن بها السكاكيني. وهو يستشهد على تذمره من أهل زمانه بأبيات من الشعر الذي يحفظه، غير أنه يحتفظ بهذا التذمر لنفسه، ويسجله في يومياته، باعتباره امتداداً لرأيه النقدي في المجتمع وأهله.

وحينما استبد به الحزن على زوجته المتوفاة، حاول أن يقنع نفسه بضرورة الخروج من إطار حياته اليومية المتكررة، خصوصاً بعد وقوعه فريسة للوساوس المرضية التي تصور له أن سلطانة دفنت وهي لم تفارق الحياة. حاول أن يقنع نفسه بضرورة السفر لكي يخرج من الكوابيس التي تطارده ليلاً، ومن الوساوس التي تثقل عليه نهاراً. لكنه لم يسافر إلى الخارج. اكتفى بالتنقل في

أرجاء فلسطين، وفي القدس وضواحيها. يذهب إلى حيفا (وتكون لديه مهمة التدخل لإنهاء نزاع بين فريقين من أبناء الطائفة الأرثوذكسية، أو يكون مرافقاً لابنه سري الذي يذهب معه إلى حيفا، ومن هناك ينطلق وحده إلى بيروت)، ويذهب إلى يافا غير مرة لعيادة مريض أو للمشاركة في جنازة صديق. يذهب إلى نابلس لإلقاء كلمة في حفل تأبين الشاعر ابراهيم طوقان. يذهب إلى أريحا وإلى رام الله وإلى بيت لحم وبيت جالا للنزهة ولتدخين النارجيلة في المقاهي، أو لزيارة خاصة أو لإنجاز مهمة ما. يذهب إلى مقهى على مشارف قرية عين كارم أو مقهى في قرية لفتا ومعه صديق أو قريب، لتدخين النارجيلة ولقضاء بعض الوقت في الثرثرة وتناسي الأحزان.

ولعل عزاءه الأكير، كان يتمثل في اتساع علاقاته مع أدباء عصره في غير قطر عربي. كان يرسل المقالات إلى بعض المجلات المشهورة آنذاك، فتنشر له مقالاته. وكانت هذه المجلات تنشر تعليقات نقدية على كتبه التي دأب على إرسالها إلى زملائه وأصدقائه من الأدباء. وكان يتلقى التعازي المكتوبة بلغة النثر أو الشعر في وفاة سلطانة، ويسهم بدوره في إرسال رسائل العزاء لأصدقائه ومعارفه حينما تلم بهم النكبات. ولم يتوقف بيته يوماً عن استقبال الضيوف من الكتاب والأدباء. وبعد وفاة زوجته، تكفلت أخته ميليا بالإشراف على شؤون البيت وعلى خدمة الأسرة وضيوفها، بكل ما عرف عنها من إيثار.

## ٥

لم يترك خليل السكاكيني فسحة من الوقت، إلا استثمرها في القراءة باللغتين العربية والانجليزية. كان عقله النقدي منفتحاً على المعرفة الإنسانية دون تردد أو استنكاف. يقرأ «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، و«البيان والتبيين» للجاحظ، ويقرأ «هتلر في الميزان» لعباس محمود العقاد. يقرأ أرسطو ويعلق عليه قائلاً: «لم يجن أحد على الفكر الإنساني جناية أرسطو عليه». يقرأ فلسفة نيتشه وتكون له ملاحظات عليها. ويقرأ فلسفة شوبنهاور ويصبح من المعجبين بها، لأن ما فيها من تشاؤم ومن رفض للحياة، يتجاوب مع نزعته العدمية التي تتناقض مع نزعته العقلانية، حيث عرفناه قبل وفاة زوجته، مقبلاً على الحياة. أما بعد وفاة الزوجة، فقد شابت مواقفه الفكرية نزعة لاعقلانية متناسلة من مأساته الشخصية.

وتكون له قراءات واجتهادات في اللغة، ويكون له نقد صارم ضد الجامدين الذين يقتلون حيوية اللغة العربية، وهو يدعو إلى تبسيط قواعد اللغة باعتبارها وسيلة لا غاية. وتكون له قراءات في الفلسفة اليونانية وفي الفلسفة الإسلامية وفي مؤلفات أحمد أمين وطه حسين وغيرهما. وتكون له قراءات في التربية. وهو يخلص إلى فلسفة تربوية مبنية على خلق مدرسة حديثة، مهمتها توسيع العقول وإنماء شخصية الطالب لا تقزيمها، وتكون هذه القناعات حول المدرسة الحديثة ودورها، أبلغ تعبير عن نزعته العقلانية التنويرية.

وتكون له آراء صارمة في رجال الدين، حدّ كتابته في وصيته بألا يشارك في جنازته أحد منهم، وبألا يصلي عليه أحد. وهو يأسف للحالة التي وصلت إليها الطائفة الأرثوذكسية، وتصل به جرأته الفكرية حدّ النظر في قضايا شائكة منها ما له علاقة بالخالق وبأصل الأديان، فيكون له رأي في كل ذلك مبني على قراءاته المتنوعة وعلى الملاحظة الشخصية والتأمل، وعلى التجربة المستقاة من الواقع.

وهو يدخل في محاجحة جريئة حول الموقف من آدم ومن شجرة معرفة الخير والشر، يقول: «حين وضع الله آدم وحواء في الجنة قال لهما: كُلا من كل شجرة في الجنة، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكلا منها، بدون ذكر الأسباب. لماذا آكل من هذه الشجرة، ولماذا لا آكل من تلك! كأن الله يكتفي من الإنسان أن تكون فضيلته تقليدية، فإذا أكل فلأن الله قال: كُل. وإذا امتنع عن الأكل فلأن الله قال: لا تأكل، وكأن آدم أبى أن تكون فضيلته تقليدية، أن يعمل كذا ولا يعمل كذا من غير فهم..» ولا داعي لتلخيص هذه المحاججة، فالعودة إليها في متن اليوميات وقراءتها كاملة أفضل من تلخيصها على نحو مبتسر، وهي تدلل على رغبة الرجل في إطلاق العنان لعقله، يجوس في مجالات التأمل وانتاج المعرفة دون اكتراث للمحظورات. قد تتفق معه في ما يذهب إليه وقد لا تتفق معه، ومع ذلك تستوقفك جرأته في البحث والمجادلة.

## ٦

ولعل هذا الأمر المتعلق بتحري المعرفة، يقودنا إلى التأمل في موقف خليل السكاكيني من السياسة. فهو يقر بأنه ليس رجل سياسة. مع أنه لم يكن بعيداً عن الحركة الوطنية الفلسطينية ونضالاتها، وكانت له مواقف إيجابية تنطوي على مبالغة تجاه الحاج أمين الحسيني قائد هذه الحركة. وكان في الوقت نفسه على صلة، ولو من خلال الصحافة، مع المثقفين الفلسطينيين الماركسيين الذين تجمعوا حول مجلة «الغد» الناطقة باسمهم، بل إن المجلة نشرت مقابلة مع السكاكيني في أحد أعدادها. وكان له موقف مبدئي من القتل والاغتيالات السياسية، حيث لم يجز اغتيال فخري النشاشيبي رغم اختلافه معه في مسلكه السياسي. وإذا كان لم يكثر من الكلام على الوضع في فلسطين في هذا الجزء من اليوميات، فلربما عاد السبب إلى خمود النشاط الوطني الفلسطيني بعد هزيمة ثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٩، وإلى شرحه لموقفه من الانتداب البريطاني على فلسطين ومن الهجرة الصهيونية إليها، في أجزاء سابقة من اليوميات، وكذلك في كراس خاص كرّسه لهذا الغرض.

وهو إلى ذلك، كان معنياً بتتبع المذاهب السياسية السائدة في عصره من ديموقراطية واشتراكية وشيوعية ونازية. وهو بطبيعة الحال محبذ للديموقراطية كاره للدكتاتورية، ولديه قناعة بأنه «لا اشتراكية مع الدكتاتورية ولا دكتاتورية مع الاشتراكية».

غير أن ما يلفت الانتباه، موقفه من الحرب العالمية الثانية التي كانت مستعرة في زمن كتابة هذا الجزء من اليوميات. فالموقف منها لا يرقى إلى مواقف السكاكيني العقلانية تجاه مسائل أخرى. فهو يدين الحرب بشكل عام وهذا أمر إيجابي، ويتأسى على القتلى الذين يسقطون في ساحات المعارك بأعداد ضخمة، وهذا إيجابي أيضاً. وهو يعتبر نفسه انطلاقاً من رفضه للحروب إنساني النزعة أولاً، وطني النزعة ثانياً، وهذا إيجابي ولا غبار عليه. إلا أنه يذهب في تفسير أسباب نشوب الحرب مذاهب غير مقنعة، ويظل غير قادر على رؤية الخطر الذي جرته النازية على البشرية قاطبة، باعتبارها الشكل الأكثر تطرفاً لقوى الرأسمالية الاحتكارية، الراغبة في إعادة اقتسام مناطق النفوذ في العالم، ولو أدى ذلك إلى إحراق العالم وتكبيد شعوبه مزيداً من الويلات.

ربما كان لخصوصية الوضع في فلسطين آنذاك، ولتوجهات الحركة الوطنية الفلسطينية من الحرب ومن الأطراف المتصارعة فيها، وبالذات من بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين، علاقة

بعدم وضوح الموقف من هذه الحرب، والاكتفاء بإدانتها من منطلق إنساني عام، وتحميل المسؤولية عن نشوبها واستمرارها لكل المشاركين فيها سواء بسواء.

## ٧

لدى متابعة مصادر فكر خليل السكاكيني، سنجد أن مأساته المتمثلة في موت زوجته، خدمت فكره في اتجاهين، أحدهما سلبي وثانيهما إيجابي.

فالمفكر العقلاني الذي كان يدعو إلى مدرسة حديثة تحترم العقل، وتعلي من شأن الحياة، المفكر الذي كان هو نفسه متعلقاً بالحياة راغباً فيها حتى الثمالة، تحول بعد موت سلطانة إلى الترويج بإلحاح، لمواقف وأفكار لاعقلانية تدعو إلى رفض الحياة وإلى وصفها بأنها عبث، وهي مكرسة للموت، فما النفع فيها والحالة هذه! وراح يستعين بقول سليمان الحكيم بين الحين والآخر: باطل الأباطيل الكل باطل، وأكثرَ من البحث في الشعر العربي لكي يستخرج منه ما يؤيد دعواه في عدم الإقبال على التناسل، فيجد في شعر أبي العلاء المعري وغيره من الشعراء، ما يؤيد زهده في الحياة ووصفه لها بأنها عبث.

ثم راح يستنجد ببعض الظواهر الطبيعية ليؤكد على أن الطبيعة تؤيد الانقراض، بل إنه وسع نشاطه البحثي في اتجاه الفلسفة، ووجد في الألماني شوبنهاور وفي فلسفته المتشائمة ما يستجيب لرغباته الفكرية، ومن ثم أخذته الحماسة وراح يَعدُ بين الحين والآخر، بأنه سيضع كتاباً بعنوان «تعالوا ننقرض»، بل إنه كتب صفحات عديدة حول هذا الموضوع اعتاد أن يقرأها على ضيوفه، لرصد ردود أفعالهم عليها، ولاستدراجهم إلى إبداء رأيهم فيها. وأصبح همه الأساس أن يؤلف هذا الكتاب، ناسياً أو متناسياً، حقيقة أن بقاء النوع البشري وارتقاءه وبحثه الدائم عن وسائل لتحسين شروط الحياة ولدفع غائلة الموت قدر الإمكان، هو ما يعزي الفرد المكرس للفناء، ويدفعه إلى العمل لتعزيز بقاء هذا النوع البشري، عبر تطوير العلم والارتقاء بالفنون التي تحفظ بدورها إنجازات الأفراد، وتدمجها في البحث الإنساني الدؤوب عما يجعل الحياة أرقى وأجمل وأبهى. بل هو يدعو صراحة إلى تسفيه من يحاول الارتقاء بالنوع البشري، يقول: «ما أجهل من يحاول رفع مستوى البشر، أن ينور بصائرهم، أن يصلح ما اعوجّ من غرائزهم وطبائعهم، فإن عمله هذا عقيم..». وكذلك قوله: «ليس لي يا أم سري إلا الماضي أعيش فيه، لا حاضر لي ولا مستقبل».

وأما الاتجاه الإيجابي الناتج عن هذه المأساة، فيتمثل في استمرار كتابة هذه اليوميات التي ترقى إلى ما يشبه السيرة الذاتية، وإلى تسجيل أحاسيسه وأحزانه بشفافية وصدق، ويتمثل كذلك في تحريض ملكاته على التأمل العقلي في الحياة والموت، والوجود والعدم، والمجتمع والإنسان، والطبيعة والخالق، والدين والفلسفة، وإنتاج مواقف فكرية يصل بعضها درجة عالية من التألق، ويظل بعضها الآخر مجرد تهويمات ذهنية لا تخلو من التبسيط.

ثم إن هذا المفكر العقلاني التنويري، الذي قادته مأساته الشخصية إلى تصعيد هذه المأساة من بعض جوانبها، على نحو أسهم في تقديم إنجازات أدبية وفكرية، يظل متواضعاً، فلا يبالغ في تصوير قدراته الجسدية والنفسية، ولا يتورع عن الاعتراف الصريح بضعفه الإنساني أمام هذه المأساة، ما يكسبه احترام المتلقي وتعاطفه، لأن الاعتراف بالضعف دليل على الصدق مع النفس

ومع الآخرين، وهو دليل على النزاهة والشرف. يقول بعد وفاة سلطانة: «عرفت نفسي على حقيقتها، عرفت أني ضعيف لا أقوى على حمل مصيبتي، جبان لا أقوى على مواجهة المصائب والاستخفاف بها».

## ٨

وفي معرض تتبع تفاصيل هذا الجزء من اليوميات، وتشعبه لكي يعطي صورة أشمل عن الحياة اليومية للسكاكيني ولأسرته ولمن يحيطون به، تجدر الإشارة إلى حرصه على تسجيل أسماء الزوار الذين كانوا يؤمون بيته من أقارب وأصدقاء. فنلمس أن بيته في الأساس هو بيت ثقافة وأدب، وهو بيت مكرس لاستقبال النخبة المتنورة من أبناء المجتمع، مع أن كثرة من أسماءِ الزوار تمر وتتكرر دون أن نعرف عنها سوى أسمائها. مع ذلك يصبح تكرار هذه الأسماء مقبولاً كما لو أنها جزء من المشهد الذي لا يمكن الاستغناء عنه، مشهد النخبة التي لا تميز بين الرجال والنساء، ولا تستنكف عن التعاطي مع الحياة بجدية وانفتاح. ويصبح من حق المتلقي أن يؤلف في ذهنه تصوراً ما لأصحاب هذه الأسماء، مستمداً من طبيعة البيت الذي يزورونه، ومن ثقافة أهل البيت أنفسهم، خصوصاً السكاكيني نفسه الذي كان له موقف ديمقراطي متقدم من المرأة، يتجلى في علاقته مع زوجته أساساً ومع ابنتيه وأخته، ويتجلى كذلك في موقفه الرافض لقضية طلاق المرأة مهما كانت الأسباب. من الأمثلة على تسجيل الأسماء: زارنا يعقوب ابن خالتي مع الآنسة أولغا تماري. نامت عفيفة في بيتنا. زارتنا أم سمعان عبده وابنتها عدلة وزوجها وأخته. بعد العشاء زارنا السيد شكري ديب مع سيدته، وغير هذا كثير.

في حين أن زواراً آخرين يجري تقديم معلومات عنهم، أو يجري ذكرهم وهم منهمكون مع السكاكيني في قراءة بعض الكتب أو مناقشة بعض الأفكار، أو الاستماع إليه وهو يقرأ عليهم شيئاً من يومياته وأفكاره، ومن الأمثلة على ذلك زيارات كل من: جورج خميس. محمود عزمي وسيدته. عادل جبر. الشيخ توفيق الطوبي. عيسى الناعوري. إسحاق موسى الحسيني. وآخرين.

تجدر الإشارة أيضاً إلى حرص خليل السكاكيني على تسجيل الوفيات، والمشاركة في الجنازات والذهاب إلى بيوت العزاء، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بالأقارب وبالأدباء، ما يعني أن هذا الرجل كان منخرطاً في الحياة اليومية لأهل زمانه، لا ينفصل عنهم ولا يتعالى عليهم، وما يعني أيضاً أن اليوميات تضعنا وجهاً لوجه، أمام مجتمع كامل في القدس يتحرك في الليل والنهار، وفي السراء والضراء.

## ٩

وما يلفت الانتباه، أن خليل السكاكيني لا يحفل كثيراً بحضور المكان في هذا الجزء من اليوميات، رغم الحالة الإشكالية التي كانت تواجه المكان بعد وعد بلفور وبدء تدفق موجات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. فالملاحظ أن حي القطمون الذي عاش فيه السكاكيني وأسرته لا يحضر إلا قليلاً في اليوميات. كذلك، لا يحضر سوى القليل من الأمكنة والمقاهي في القدس وضواحيها، وفي مدن فلسطينية أخرى. وحينما يذهب السكاكيني إلى مركز المدينة، يكتفي بإشارة سريعة

إلى ذلك، فيكتب: «بعد الظهر نزلت إلى البلد»، وأيضاً: «..كنا نخرج إلى ظاهر المدينة من الجهة الشمالية»، وأيضاً: «مشينا إلى قمة محلتنا القطمون إلى أن أطللنا على قرية المالحة..».

ربما لأن اليوميات مستغرقة في رصد حياة الناس القاطنين في المكان، وربما لأن المكان حتى ذلك الوقت لم يكن مهدداً على نحو سافر بالنهب والمصادرة، رغم وجود مؤشرات غير قليلة على ذلك. أو ربما هو أسلوب الكاتب الذي يذهب إلى معالجة الأفكار في الدرجة الأولى، ولا يعطي فرصة أوفى للوصف الذي من خلاله يمكن للمكان أن يتبدى على نحو صريح.

وما يلفت الانتباه أيضاً، أن خليل السكاكيني لا يحفل كثيراً في اليوميات، بطقس القدس. ذلك أن الكلام على الطقس ووصف تقلباته العديدة بين ربيع وصيف وخريف وشتاء، يعتبر سمة لازمة من سمات المكان، تهبه مزيداً من الحضور والرسوخ في الأذهان.

ثمة إشارات متقطعة لحالة الطقس. مرات قليلة هي التي قرأنا فيها عن شدة البرد وعن نزول المطر، مثلاً: «الأربعاء ١٥ / ١٠ / ١٩٤١ – في الساعة الثانية بعد نصف الليل من ليلة أمس، أمطرت السماء لأول مرة، واستمرت تمطر إلى الصباح، من هذا النهار، وبعد فترة عادت فأمطرت فكأننا دخلنا فصل الشتاء فجأة». وكذلك: «الجمعة ١٤ / ١١ / ١٩٤١ – (..) نحن على أبواب الشتاء، والبرد أخذ يشتد ولا سيما في الصباح..».

## ١٠

ولعل المدقق في لغة هذا الجزء من اليوميات، يتأكد من عمق اهتمام خليل السكاكيني باللغة العربية وتذوقه لها، وسعة اطلاعه عليها وعلى آدابها من شعر ونثر. ولعله في الوقت نفسه يتبين أن السكاكيني لا يسجل يومياته على الورق عفو الخاطر وكيفما اتفق، بل إنه يحرص على تجويد كتابته وعلى تطعيمها بأبيات من الشعر العربي، ومن نظمه ونظم بعض أقرانه من الشعراء، ويحرص أيضاً على الاستشهاد بنصوص من التراث العربي والإنساني، ومن القرآن الكريم والكتاب المقدس، فنكون والحالة هذه أمام نص طويل متنوع الموضوعات، حافل بالكثير من مظاهر البراعة اللغوية.

ومن يتأمل هذه اليوميات بعد الانتهاء من قراءتها بل وأثناء ذلك، يجد نفسه إزاء ما يشبه السيرة الذاتية. صحيح أن للسيرة الذاتية شكلاً أدبياً سردياً يجعلها أقرب إلى فن الرواية، بسبب ما تشتمل عليه من أساليب السرد ومن تقديم الشخصيات ومن استبطان دواخل هذه الشخصيات، ومن تنقل في الزمان والمكان على نحو أفقي حيناً وعمودي حيناً آخر. بل يمكن القول إن بوسع كاتب السيرة الذاتية، إذا كان ملماً بفن كتابة الرواية، أن يستخدم في كتابة سيرته القليل أو الكثير من أساليب الكتابة الرواية.

لم يكن خليل السكاكيني كما يبدو لي من متابعة يومياته ملماً بأساليب الكتابة الروائية، بل يبدو لي، اعتماداً على يومياته هذه، أنه لم يكن قارئاً للروايات أو للقصص، ولذلك بدا تأثره بفن الكتابة الروائية أو القصصية محدوداً (مرة واحدة في هذا الجزء من اليوميات، فكر السكاكيني بكتابة قصتين، وراح يقدم تلخيصاً لهما، وفكر مرة بوضع «رواية تمثيلية يلتزم فيها المتحدثون الاختصار في الكلام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً»). وقد نكون في حاجة إلى تقصي ميله إلى هذا اللون من الكتابة، أقصد كتابة اليوميات وكيف اهتدى إليه واتخذه أسلوباً له في كتابة شبه يومية،

جعلته الشكل الأساس الذي استقر عليه للتعبير عن همومه وعن تفاصيل حياته، مع أن هذا الشكل من الكتابة، أبسط وأسهل بما لا يقاس من الكتابة الروائية، لاعتماده على الوقائع المباشرة في الدرجة الأولى. غير أنه يظل بالنسبة لخليل السكاكيني أكثر فاعلية وجدوى من محاولاته الشعرية، التي قصرت عن الوصول به إلى ما يطمح إليه من غايات فنية وأدبية.

هل جاء هذا اللون من الكتابة محصلة اجتهاد خاص بالسكاكيني؟ أم إنه تأثر في كتابته بكتاب أوروبا الذين مارس بعضهم كتابة يوميات ومراسلات؟ هل تأثر ببعض أهل زمانه أم إن بعض أهل زمانه تأثروا به؟ (مثلاً: كتب الموسيقي المقدسي واصف جوهرية الذي كان معاصراً للسكاكيني، مذكرات عن القدس في آخر حكم العثمانيين وفي زمن الانتداب البريطاني، وذلك بعد شروع السكاكيني بكتابة يومياته بسنوات).

على أية حال، وبغض النظر عما تفضي إليه هذه التساؤلات، فإن خليل السكاكيني يبرر لجوءه إلى هذا اللون من الكتابة بالقول: «استحسنا اتخاذ اليوميات، فأحسن ما تكون الكتابة إذا كانت من وحي ساعتها».

## ١١

وما دمنا بصدد الحديث عن التأثر أو عدم التأثر بفن الرواية، فإن يوميات السكاكيني هذه تحمل في ثناياها، ولو من بعيد، تقاطعاً غير مباشر مع فن الرواية، على الأقل في الجانب الذي يتعلق ببناء الشخصيات. ذلك أن شخصية سلطانة في اليوميات، معبر عنها بطريقة تجعلها حاضرة في ذهن المتلقي وهو يتابع وصف الكاتب لها في حال مرضها وصحتها، وفي حال قيامها وقعودها. والكاتب لا يترك شاردة ولا واردة من تفاصيل حياتها إلا ذكرها، بحيث يكتمل حضور شخصية هذه المرأة المتميزة في الأذهان، بل إنه لفرط ما أسبغ عليها من الصفات، يرفعها إلى مقام النموذج الفني المتعالي على الواقع الملموس، وإن كان ينطلق في وصفه لها من هذا الواقع. الأمر نفسه، وإن كان بوتيرة أقل كثافة، ينطبق على شخصية الأخت ميليا، وعلى شخصية كل من الابنتين دمية وهالة، وبشكل أقل بكثير، على شخصية سري، ربما لأنه أفرط في الحديث عنه وفي الكتابة إليه في الكتاب الذي حمل اسمه: «سري».

في كل الأحوال، كان يمكن لهذه اليوميات ألا تحرز مكانة لافتة في دنيا الفكر والأدب المعاصرَيْن، لو أنها اكتفت بتسجيل وقائع عايشها الكاتب، على نحو يخلو من الانفعال وصدق المعايشة وحرارة المعاناة. في يوميات السكاكيني هذه، ثمة انفعال طاغ تجاه الواقع (موت زوجته مثلاً) وثمة صدق في المعايشة وفي حرارة المعاناة، وثمة اجتهادات فكّرية جريئة تتبدى على هذا النحو أو ذاك.

وعلاوة على ذلك، ثمة تجويد في أسلوب كتابة اليوميات. ثمة لغة حية منتزعة من رحم التجربة المعيشة. وثمة متابعة ذكية لمسار الشخصيات والأحداث كما لو أننا بإزاء رواية تتواصل فصولها ومشاهدها أمام أعيننا في تواتر صاعد إلى الأمام، أو في استرجاع ذاهب إلى الوراء. هنا في ما يخص مسألة الاسترجاع، أعتقد أن السكاكيني لم يكن على دراية باستخدام التداعي الحر أو الفلاش باك، الذي برع فيه كتاب الرواية الحديثة من أمثال جيمس جويس وفرجينيا ولف ووليم فوكنر. يستعيض السكاكيني عن ذلك بإعادة تثبيت نصوص من يوميات سابقة لكي تتجاور مع

يوميات لاحقة، معبرة عن زوجته سلطانة في حالتي المرض والوفاة.

وفيما بعد استطاع أن يخطو خطوة إلى الأمام على طريق الاسترجاع، حينما تخلى عن تثبيت اليوميات السابقة، مستعيضاً عنها بعقد مقارنة بين إحساسه اليوم، وإحساسه حينما كانت سلطانة على فراش المرض، يقول: «الخميس ٢٦ / ٩ / ١٩٤٠ – أحس بما كنت أحس به في مثل هذه الأيام من السنة الماضية، أروح وأجيء ويدي على قلبي، كأنك على فراش المرض في ساعاتك الأخيرة، وكأني خائف عليك، وقد رأيتك الليلة في نومي وأنت على فراش المرض والدار ملأى بالزائرين».

واليوميات ليست مكتوبة على وتيرة واحدة من حيث الطول والاستطراد. أحيانا نجد يوميات طويلة وفيها استطراد، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بشرح مسألة فكرية أو فلسفية. ويبدو أن الكاتب كان مزوداً بحساسية خاصة تجاه عدم الرغبة في التطويل الباعث على الملل، فقد كان يقطع السرد ويكتب بحسم واختصار: سأعود إلى هذا الموضوع، أو: ولنا عودة إلى هذا الموضوع.

وفجأة، بعد صفحات قليلة أو غير قليلة، يعيدنا الكاتب بجملة واحدة ودون مقدمات إلى موضوع سابق كان قد توقف عن الاستمرار فيه، فيكتب بحسم واختصار: لنرجع إلى موضوعنا أو لنعد إلى موضوعنا. وبهذه الطريقة نكون أمام سرد قابل للانقطاع، وهو قابل في الوقت نفسه للاستئناف، ما يجعل المتلقي في حالة من الترقب الذهني، وفي حالة من الاستمتاع بمتابعة الكاتب وهو يتحكم في أسلوب كتابته، فلا يبقيها على وتيرة واحدة.

وله في باب استخدام الصيغ، جملة تكررت في اليوميات، وهي: إن هذا لعجيب. يضعها في نهاية موقف مفاجئ مثيرللاستغراب. مثلا: عدم اهتمام أهل سلطانة بزيارتها بشكل مستمر أثناء مرضها، وعدم زيارة قبرها بعد موتها إلا على فترات متباعدة. آنذاك يصح له أن يكتب معلقاً على هذا الموقف أو ذاك: إن هذا لعجيب!

وثمة يوميات بالغة القصر والتكثيف، حيث تقتصر اليومية على بضع جمل سريعة. وفي أحيان أخرى، تشتمل اليومية على عدد من الوقائع المسرودة التي تتباين في ما بينها من حيث الطول والقصر. ثمة واقعة رئيسة. ثم يطالعنا الكاتب بوضع ثلاث نقاط متتابعة، ليبدأ في سرد جملة خبرية واحدة كأنها برقية سريعة. ثم يضع ثلاث نقاط أخرى، ويبدأ في سرد جملة خبرية أخرى، وهكذا دواليك.

تبدأ هذه اليوميات في أغلب الحالات بجمل فعلية خبرية مبدوءة بالفعل الماضي. وفي أحيان قليلة استخدم الجملة الاسمية. مثلاً: «المطر مستمر». واستخدم في حالات أخرى قليلة الفعل المضارع. مثلاً: «أشتغل الآن في بعض أوقات فراغي بكتابة الكلمة التي ستتلى في حفلة إحياء ذكرى أمين الريحاني»، أو «أقرأ الأخلاق لأرسطو».

وأما سلطانة، فقد كان يتحدث عنها في اليوميات بضمير الغائب، ثم يتحول فجأة إلى مخاطبتها مباشرة، كأنها حاضرة معه ترى ما يرى أو تدرك ما يدرك. وفي أحيان أخرى كان يتحدث إليها مباشرة دون أن يسمي اسمها ودون أن يكنيها بالقول: يا أم سري، فنفهم أنه يتحدث إليها، وفي ذلك ملاحة في السرد.

وهو معني بقراءة ما يكتب على زواره لسببين، أولهما «أنني أخاف أن أموت قبل أن أظهر رسالتي هذه..» وثانيهما «وهو أني أحب أن أختار أسلوب الحديث لكتابي، فإذا تحدثت

بموضوعي تمكنت من أسلوب الحديث». وهو يتحدث عن فترة اختمار لمادة الكتابة قبل أن يبدأ بتدوينها، خصوصاً إذا كان الأمر متعلقاً بتأليف كتاب، يقول: «يخيل إلي أن الموضوع الذي لم أزل منذ أمد طويل أشتغل به وهو «الحياة عبث فتعالوا ننقرض» قد تشبعت منه، ولست أنتظر إلا أول فرصة لأبدأ بالكتابة».

غير أنه مع الاستمرار في التفجع والدوران حول الموضوع نفسه، يقع في بعض التكرار في المواقف، ويعود إلى سرد تفاصيل سبق ذكرها، مثل قول سلطانة له وهي مريضة: «يا خليل، اعمل معروفاً أعطني كذا». ومثل قوله: «أذكر كيف وارايناك في التراب» وغير ذلك.

من المناسب الإشارة إلى الأحلام الليلية التي كان الكاتب معنياً بتدوينها، وهي في الأغلب الأعم أحلام كابوسية نابعة من حزنه على زوجته. وفي فترة لاحقة خفت حدة التفاصيل الكابوسية في الأحلام، بل إن بعضها كان يظهر سلطانة في أحلام زوجها، وهي في كامل أناقتها وجمالها. للأحلام المسجلة في اليوميات دور في بناء سرد متنوع، وفي إغناء هذا السرد برؤى وتجليات، وهو مما يحسب لجهة تعزيز القيمة الفنية لهذه اليوميات.

## ١٢

وتتبدى بوضوح في هذه اليوميات، هواجس الكاتب تجاه الكتابة، بحيث نرى رغبته المستمرة في الكتابة وفي التأليف، وفي الإجادة. يقول: «اشتغلت أكثر وقتي بالكتابة، ولست أنكر أني أجد في الكتابة شيئاً من المشقة، المواد ماثلة أمامي وهي كثيرة ولكنني منصرف إلى اختيار شيء منها لا إلى اختيارها كلها، فماذا أختار وماذا أترك، وقد يحتاج ما أختاره إلى إعادة نظر، إلى اختصاره إذا كان طويلاً، وإلى إيضاحه إذا كان مبهماً، وإلى تنظيمه إذا كان مشوشاً». ونرى كذلك اهتمامه بالبحث عن أفضل أساليب الكتابة، يقول: «ويظهر لي مما أقرأ أن أسلوب الكتابة لا يزال في حاجة إلى تحسين، وأهم ما يجب إدخاله على هذا الأسلوب الاقتصار على المهم وترك غيره أولاً، والدخول في الموضوع رأساً ثانياً، وإلا فإن أكثر كتبنا يصدق عليها قولهم: درهم عسل على قنطار حطب».

وتتبدى أمام أعيننا مشاريعه التي يفكر فيها ويطمح إلى تحقيقها. يعدد أسماء كتب سيقوم بتأليفها، يقول في إحدى يومياته: «تحدثني نفسي أن أضع كتاباً عن حياتنا الزوجية باسم (روايتي)»، وأيضاً: «تحدثني نفسي أن أجمع ما قلته في الرثاء، في أبي، فداود صيداوي، فأمي، فأستاذي، فنعوم شقير، فأم سري، فرستم حيدر، فإبراهيم طوقان، في كتاب أسميه «المراثي»». وأيضا: «سأقصر ما بقي لي من الحياة على وضع كتاب عنوانه «تعالوا ننقرض»، وكتاب آخر أحارب فيه الأديان والحكومات لأني أعتقد أن شقاء البشر وتأخرهم يرجعان إلى الأديان والحكومات». وأيضاً: «شرعت اليوم أضع كتاباً عنوانه «كذا أنا يا دنيا»». وأيضاً: «خطر لي أن أضع كتاباً بعنوان «مجانين»..». وأيضاً: «خطر لي أن أضع رسالة في آدم عنوانها «لو كنت في محله لفعلت ما فعل»..». وأيضاً: «أمامي كتب كثيرة أحب أن أضعها قبل أن أرحل عن هذه الدنيا، فمتى أستطيع ذلك؟»، وهو يتحسب من صعوبة نشر مثل هذه الكتب، فهل هو قادر على طباعتها ونشرها!

تتبدى كذلك عاداته في الكتابة وفي القراءة. يتبدى قلقه على الوقت الضائع وتذمره من كثرة الزوار إلى بيته. يمارس الكتابة في العادة صباحاً، غير أنه يفكر بتغيير وقت الكتابة إلى فترة ما

بعد الظهر، يقول: «لا يمر يوم إلا وقد خطرت لي خواطر كثيرة حريّة أن تكتب، ولكن اضطراري أن أخرج من البيت كل يوم إلى المقبرة ثم إلى المدرسة يحول دون ذلك، ولعلي أغير أوقات الكتابة، كأن أكتب بعد الظهر لا في الصباح».

تسيطر على هذه اليوميات نزعة الإخبار وتسجيل الوقائع بشكل عام، وهو أمر غير مستغرب في هذا اللون من الكتابة، غير أن الكاتب في أحيان قليلة، كان يخرج من هذا الإطار إلى فضاء كتابة نص أدبي، يشتمل على قدر من التخييل، يقول معبراً عن مقدار حضور سلطانة في عقله ووجدانه: «كيف ألتفت، وأين ذهبت، أراك. أركب السيارة فأحس أنك راكبة إلى جانبي. أمشي في الطريق فأحس أنك ماشية إلى جانبي. أدخل الحديقة فأتخيل أني أراك وراء كل زهرة وتحت كل شجرة. أدخل البيت فأتخيل أنك جالسة في صدره تقرأين أو تشتغلين..» أو يشتمل على قدر من السخرية، مثلما فعل وهو يتحدث عن ضعف السياحة في القدس بسبب الحرب وبالتالي كساد التجارة، فيصور ذلك بمبالغة مقصودة لإحداث الأثر المطلوب في نفس المتلقي. والأمر نفسه يتبدى في وصفه لرحلة إلى عمان، دعاه إليها السيد شكري ديب «أبو جورج»، يقول: «كنت قبل اليوم أقول وأعلن في الناس أن أبا جورج مثل ملك الانجليز، للملك أسطول ولأبي جورج أسطول مقره البحر الميت..»، ثم يصف نهاية الرحلة قائلاً: «ولكن لن أقبل له دعوة بعد اليوم، فقد كانت سيارته هزيلة عجيفة..».

هذه اليوميات ما زالت محتفظة بحضورها وبهائها، بسبب من حداثة أفكار صاحبها، وبسبب من لغته العذبة المستمدة من تجربة طويلة في الكتابة، ومن ثقافة لا تعرف الجمود.